الفصل الثانى

الفرزدق فى عَصْرِه

١ ــ اسمه وكنيته ولقبه :

اسمه همام بن غالب بن صعصعة من دارم ثم من تميم ، يكنى أبا فراس ، وهى من كنى الأسد ، وأبا مكية ، ابنة له ولدت من جارية سوداء . ولقّب بالفرزدق لجهومة وجهه وأثر من الجدرى منطبع فيه ، ولكن من أين جاءه هذا اللقب ؟ ! لقد اختلف فى ذلك كما اختلف فى معنى كلمة الفرزدق ، فقيل : هو الرغيف الساقط فى التنور ، وقيل القطعة من العجين . وقيل فتات الخبز ، كما قيل إنه الخبزة الغليظة التى تتخذ منها النساء الفتوت فتشربه لتتسمّن ، وإنه معرب من (برزده) أو إنه منحوت من « فرز » و« دق » . والأغلب أنه الخبزة الغليظة المتجهمة ، بدليل ما جاء عن هشام الغزى . أنه اجتمع بالفرزدق فى مجلس فتجاهله وقال : من أنت ؟ ! فقال : أما تعرفنى ؟ ! قال : لا .

ــ أنا أبو فراس .

ــ ومن أبو فراس ؟ !

ــ أنا الفرزدق .

ــ ومن الفرزدق ؟ !

ــ أوما تعرف الفرزدق ؟ !

ــ أعرف الفرزدق أنه شىء تتخذه النساء عندنا بالمدينة تتسمّن به ، وهو الفتوت .

فضحك الفرزدق ملء شدقيه وقال : الحمد لله الذى جعلنى فى بطون نسائكم ! !

٢ — نسبه :

يعود نسب الفرزدق إلى دارم ثم تميم . وتميم هذه اعتدت مرة فى الجاهلية على الحرم وفى الأشهر الحرم فأجلتها العرب عن تهامة فانتشرت فى بوادى اليمامة ونجد والبصرة . ولا تزال كذلك إلى اليوم ، إلاّ أنها صعدت قليلاً إلى العراق الأوسط وتقربت من بغداد وتحلقت حول بحيرة الحبانية ، ولا يزال أمراؤها يعيشون عيشة الإقطاع الأول حتى اليوم .

وينبغى ألاّ يمرّ حادث اعتداء تميم على الحرم مرًّا سريعاً ، لماله من أهمية ، فهو يدلنا دلالة واضحة على عراقة هذه القبيلة فى البداوة وبعدها عن الحس الحضرى الذى يخضع للقانون ويحترم الشرائع ، وقد أورثت هذه القبيلة فيما أورثت شاعرها الفرزدق ؛ طباعها البدوى جاء جافياً فى طبعه ، قاسياً فى تعامله ، جريئاً فى تطاوله ، صحراوياً فى لغته ، بدوياً فى معانيه ، لم يصقله الإسلام ولم يهذبه الدين . وكان أبوه غالب مشهوراً بالكرم والعزة . وجده صعصعة عظيماً فى قومه ابتدع للشهرة طريقاً كريمة جدًّا فقد اشترى أكثر من أربع مئة موءودة [١] أنقذها من الموت المحتم . فورث الفرزدق منهما حب الفخار والنجدة وأكثر من ذكرهما فى شعره تعظيماً وتفخيماً .

وتغطرس فتطاول على الشعراء والقادة والملوك . . . فمن كقومه فى الجاهلية عزة وجفوة . يتطاولون حتى على الحرم ؟! ومن كأبيه وجده يدفع من خاص ماله ليحيي الموءودات من بنات الناس ؟ ! وهذا ما نفر منه الحزب الحاكم ، فقد كان كثير الإدلال عليهم . كثير الفخر أمامهم بأبيه وجده وأهله . . . وقد وقف مرة أمام معاوية يطالبه بإرث فخاطبه بلهجة الأنداد وأربى عليه [٢] .

وما وقف ليمدح خليفة إلا دس فخره بنفسه وقومه فى هذا المديح . فقلّ حظه منهم ومن الحزب الحاكم فلم يقربوه إلا ليطأطئوا منه ، وعاش عمره طريداً يحبسونه مرة ويطلقونه أخرى .

وكان الشعر كالصحافة اليوم يدر الرزق على الشاعر إذا عرف كيف

---

(١) الموءودة : المدفونة فى التراب وهى حية . (٢) انظر المنتخبات ص ٦٨ .

يستخدمه فى تيار الحزبية السياسية ، وهو — بالطبع — أكثر ربحاً كلما كان أشدّ قرباً من الحزب الحاكم لأن المال والجاه والشهرة كلها هناك . وكان الفرزدق يشعر بهذا فيقصد أبواب الملوك ويلحف بالسؤال وهو مع ذلك ذو نفس مشبعة بالعنجهية البدوية والأرستقراطية لا يلين ولا يستكين :

أما الملوك فإنا لا نلين لهم حتى يلين لضرس الماضغ الحجر

٣ — طفولته :

لسنا نعرف شيئاً عن طفولة الفرزدق إلا نتفاً صغيرة لا تغنى ، ولذا لا نستطيع أن نعين عام ميلاده إلا بالتقريب. فقد ذكروا أن والده غالباً قدم به على علىّ ابن أبى طالب عام الجمل (٣٦ هـ) وقال له : إن ابنى هذا يقول الشعر ويوشك أن يكون شاعراً مجيداً ، فقال له على : علمه القرآن فهو خير له .

وقد شك بعضهم فى هذه القصة إذ ذكر أن أول شعر فى شبابه قوله :

شاهد إذا ما كنت ذا محمّيه بـــدارىّ أمّه ضبيه

صمحمح مثل أبى مكيّه

ومكية هذه التى يشير إليها فى شعره؛ هى ابنته . فكيف ندعى أنه كان صغيراً حين لقى به أبوه علياً وقد كان متزوجاً وله ابنة ؟ !

على أن هذا الزعم ضعيف لأن من عادة العرب أن يكنوا أولادهم وهم صغار. ولا تزال هذه العادة فيهم إلى اليوم ، ويتبعها بعض المتأثرين بالآداب القديمة من الحضريين أيضاً ، فيكنون أولادهم بأبى هاشم وأبى خليل وأبى على . . . وهم كثر . فورود الأبيات المتقدمة من شعر طفولته وذكر اسم ابنته فيها لا يهدم قصة وروده مع أبيه على علىّ بن أبى طالب ، بدليل أن كلمة ابن عم الرسول أثرت فيه ، وما زالت تعصف فى نفسه ، حتى قيد نفسه مرةً وعزم ألا يفك القيد حتى يحفظ القرآن وقال فى ذلك شعراً [1] .

فعلى هذا ؛ يكون الفرزدق قد ولد فى خلافة عثمان .

---

(١) انظر المنتخبات فى الفصل الرابع من هذا الكتاب .

٤ — شبابه :

نشأ الفرزدق فى البصرة، والبصرة آنئذ سوق العرب ومعرضها بعد الإسلام تهوى إليها الناس للتجارة والمنافرة والمفاخرة وطلب اللغة والأدب والشعر. بل هى نقطة الاتصال بين البادية وحاضرة العراق ، فتأثر الشاعر بهذه الحركة وأكثر ما جذبه منها الفخر والمنافرة بحكم طبيعته وإرثه الأخلاقى البدوى ، فهاجى شعراء قومه أولاً فخشوا معرة لسانه وهابوا سلاطته فتهور فى هذا المزلق واستطال إلى سائر الناس حتى عرف بالهجو قبل كل شىء . ومن كان مثله طويل اللسان يجرح شعور الناس لا يكون فيه شعور دقيق أو إحساس رقيق يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به . ولذلك كان فاحشاً قاسياً على المرأة لا يفهم روحها ولا يرى فيها إلا متعة مادية ، ولهذا كثر عدد زوجاته ومن تسرّى بهن ، ثم لا يكتفى بذلك كله ، بل يمد يده إلى حيث طالت غير مستحيى ولا خجل ، بل ربما أعلن ذلك فى شعره بصراحة .

قيل نزل مرة على امرأة فى المدينة فأحسنت ضيافته ، فراودها عن نفسها ، واشتهرت القصة فهرب من المدينة أو أجلى عنها ، فقال فيه جرير :

وكنت إذا نزلت بدار قومٍ رحلت بخزية وتركت عارا

وهكذا قطع الفرزدق مرحلة شبابه فى سكر وفسق ؛ يقول :

وإجّانةٍ رّيا الشروب كأنها إذا اغتمست فيها الزجاجة كوكبُ[1]

مختمةٍ من عهد كسرى بن هرمز بكرنا عليها والفراريج تنعبُ

سبقتُ بها يوم القيامة إذ دنا وما للصبا بعد القيامة مطلبُ

وهو يشير بهذا إلى وصف الجنة وما فيها من أنهار من خمر ، وكان له فى عفو الله رأى غريب . سأله رجل : ألك هذا الرجاء بالله وأنت تفعل ما تفعل ؟ !

فقال الفرزدق : أترانى لو أذنبت إلى والدىّ أكانا يقذفانى فى تنور وتطيب نفسها بذلك ؟

— قال الرجل : لا ، بل كانا يرحمانك .

---

(١) الإجانة : الوعاء من الفخار .

ـ فقال الفرزدق : أنا والله برحمته أوثق منى برحمتهما ! !

أفيدل رأيه هذا على إيمان قوى أم على سخرية يا ترى ؟ ! والظاهر أن الإسلام لم يؤثر فيه إلا تأثيراً ظاهرياً فقط ، وليس ذلك بعجيب ، فإن الزمن الذى عاش فيه كان طور انتقال من جاهلية جهلاء إلى إيمان ونور . وهو يمثل هذا الانتقال تمثيلا صحيحاً بحياته وشعره ولغته وأخلاقه .

٥ ـ زوجاته :

ليس من اليسير إحصاء زوجات الفرزدق . لا لكثرتهن ؛ بل لأن التفريق بين التى بنى بها بناء شرعياً ، والتى عاشرها معاشرة غير شرعية على طريق الصحبة صعب جداً . وقد تزوج أحياناً بالنسيئة كبنائه بجارية بنى نهشل .

ومن زوجاته : النوار ابنة عمه ، تزوجها خدعة ؛ خطبها رجل من بنى دارم فرضيت به ، وأرسلت إلى الفرزدق بصفته أشد أبناء عمومتها وأقربهم إليها ليتوكل عنها فى عقد النكاح ، فأخذ التوكيل علناً . وزوج نفسه منها فهربت منه إلى خولة زوج ابن الزبير بالمدينة فلحقها واسترضاها وعاشت معه ترضى عنه حيناً وتخاصمه أحياناً ، ثم لم تزل ترققه وتستعطفه حتى أجابها إلى طلاقها واشترط عليها ألا تغادر منزله ولا تمنعه من مالها ما كانت تعطيه قبلاً ؛ وله منها أولاد بل أكثر أولاده منها .

ومن زوجاته : جهيمة الأزدية ، ورهيمة النمرية ، ويشك بأنهما واحدة صحف اسمها على وجهين ، والذى نعلمه أن النمرية فركته فطلقها وهجاها . وأم مكية وهى زنجية كان يكتنى بها إذا حمى الوطيس . وجارية بنى نهشل التى يشك بشرعية زواجه منها . وسويدة التى يقول فيها :

وإن زعمت عرسى سويدة أنها سريع عليها حفظتى للمعاتب

وقد أمهره أبان بن الوليد البجلى طيبة ، ويقال هى ظبية بنت ظالم من مجاشع دخل بها وقد أسنّ ففركته ونشزت عنه كما فركته النمرية . وأصدقه الحجاج حدراء النصرانية ولا نعرف له منها أولاداً .

وكان سيئ العشرة لأزواجه . فاشتد كرههن له وبغضهن ، ونشز عنه

بعضهن كما احتمله بعضهن على مضض . هذه ابنة عمه النوار التى قطع البيداء لاحقاً بها ليسترضيها ، يتزوج عليها ؛ فإذا عاتبته هجاها أشد هجاء ومدح الجديدة . ولم يكتف بلسانه بل تطاول عليها أحياناً كثيرة بيده ، فضربها وعذبها. والرواة يحدثون أنه نزل بها مرة فى بنى سعد فطفق يضربها وهى تشتمه وتقول : « يا بنى فقيرة » كأنها تستنجد بهم . وما زال يضربها فتستغيث فلا يغيثها أحد حتى أغاثها ابن عم لها يقال له كداد ، لم يجد وسيلة يخلصها بها من بين يديه إلا أن يهدده بالضرب ، وربما فعل ، فقال الفرزدق يهجوه ويذكر الحادثة :

ما لـكداد ثـكلتنى أمى يعدو علىّ بعمومة ضخم

وما دامت هذه معاملته لابنة عمه التى تغزل بها فيما مضى وأحبها وتحمل وعثاء السفر ومشقات البوادى من أجلها . فلا عجب أن يكون على سائر زوجاته أشدّ قسوة وفظاظة .

٦ — أولاده :

قيل كان للفرزدق خمس بنات أو ست لم نعرف منهن إلا مكية . وأما أولاده فقد ذكروا أسماء بعضهم كحُبطة ولُبطة وسُبطة . . . وزاد بعضهم رُكضَة وزعمة وكلطة وجُلطة ! ! ! وقالوا إنهم كلهم من النوار . ولم يعرف له عقب من الذكور إلاّ من لبطة ، وكان شاعراً . ولم يخلف لأولاده مالاً كثيراً بل أورثهم جاهاً استطاع به لبطة أن يستقرى التغلبيين فوهبوه مئة ناقة إكراماً لأبيه.

والمتأمل فى أسماء أولاده يرى الذوق البدوى الجافى واضحاً فيها . والظاهر أنه لم يحسن تربيتهم فكانوا له عاقين ينهرونه ويجذبونه ويمتهنونه . ذكر ذلك فى شعره فعاتبهم وهجا بعضهم كلبطة على أنه بكى حين فقدهم ورثاهم . ولكن رثاءه جاف العاطفة صلب لا ينمّ عن حب أبوى عميق ، أو لهفة الملتاع المتحرّق .

٧ — شيخوخته وأخريات أيامه :

قيل إن الفرزدق مات فى خلافة هشام ، وله فيه قصيدة يمدحه بها ويهنئه

بالخلافة ، ولا نرى له بعدها شعراً فى خليفة . وهشام تولى الملك عام ١٠٥ هـ . فالمسافة الزمنية بينه وبين عام ٣٦ هـ هى ٦٩ عاماً .

وهو نفسه يقول فى قصيدته بهشام : إن عمره ثمانون عاماً :

رمتنى بالثمانين الدواهى وسهم الدهر أصوب سهم رام

فالفرق إذن أحد عشر عاماً لو طرحناها من ٣٦ لعيّنا سنة ميلاده بعام ٢٥هـ تقريباً .

ونحن نعرف أنه مات حول سنة ١١٠ أو ١١٤ هـ . فعلى هذا لا نظن قول قتيبة « بأن الفرزدق مات وقد قارب المئة » قولاً بعيداً عن الحقيقة .

فالفرزدق إذن عاش مع الدولة الأموية وقضى فيها ما يقارب القرن وعاشر عشر خلفاء هم : معاوية الأول ويزيد ومعاوية الثانى ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد الثانى وهشام . واتصل بكبار القادة كالمهلب وزياد والحجاج . كما اتصل برجال الأحزاب الأخرى كالحسين بن على والزبير والمختار ومطرف وابن الأشعث ، وبالخوارج كشبيب ونافع وقطرى . وجاس جزيرة العرب والعراق والشام والجزيرة الشامية مراراً ، ووفد على الخلفاء والعظماء فمدحهم واستمنحهم عطاياهم ، وتأثر بالتطور الاجتماعى خلال القرن الأول وبالأحداث السياسية والثورات واشترك فيها بشعره مؤيداً أو معارضاً . ولكنه لم يزر مصر ولم يهتم بأحداث الشمال الإفريقى والأندلس ، وديوانه فى هذا المعنى نبع غزير فياض . كان لنا النبراس الأول فى تحليله والتعرف إليه .

فى عمره المديد هذا امتلأت نفسه من الحياة وتكشفت له بحلوها ومرّها وخيرها وشرها ... من كل نواحيها ، فلم يعد يبالى بها وبالناس . وأصابته أحياناً نوبات زهد كما تصيب المريض نوبات الحمى ، ثم سرعان ما كان يرجع إلى فسوقه ليهاجم الحياة فيتمتع بملذاتها ويكرعها حتى الثمالة . يدلنا على ذلك زواجه وقد أسنّ وكبر ، كأنه لا يريد أن يعترف بشيخوخته . ولكن الطبيعة غلبته ففركته الزوجة وتركته يتلوى من الشره إلى المرأة . وقد تاب مرة وأصلح وهجا إبليس أبا الشرور والغواية ، وذهب إلى الحسن البصرى فقيه البصرة وقاضيها وقال

له : إنى قد هجوت إبليس . فقال الحسن : لا حاجة لنا بما تقول ! !

قال الفرزدق : لتسمعن أو لأخرجن فأقول : إن الحسن ينهى عن هجاء إبليس .

قال الحسن : اسكت. فإنك على لسانه تنطق . فانظر إلى مقدار هذه التوبة وتعجب ! !

* * *

وكان فى الصحراء آخر أيامه ، فأصابته الدبيلة ، فهبط البصرة يستشفى ، فوصف له الكى والنفط شراباً ، فسقوه فقال : أتعجلون علىّ شراب أهل النار فى الدنيا ؟ ! ثم أوصى بعتق عبيده بعد موته ، وقال وهو يجود بنفسه :

أروني من يقوم لكم مقامى ... إذا ما الأمر جلّ عن الخطاب
إلى مَن تفزعون إذا حثوتم ... بأيديكم علىّ من التراب ؟

فقال بعض عبيده معزياً : نفزع بعدك إلى الله . . .

فأمر الفرزدق ببيعه قبل وفاته استمراراً له فى العبودية ، وأبطل وصيته فيه .

تلك كانت حياة الفرزدق الشاعر ، وعلى هذه الصورة مات حول عام ١١٠ أو ١١٤ هجرية ، بعد أن خلد فى التاريخ ديواناً ضخماً ، وكلمة قيلت فيه ذهبت مع العصور : « لولا الفرزدق لذهب ثلث اللغة ! »